مفهوم الإلوهيه بين المتكلمين وبين ابن رشد
على ضوء "الكشف عن مناهج الأدله"

بقلم : الأستاذ الدكتور : فيصل بدير عبدالله عون

كلية الآداب – جامعة عين شمس

لا شك أن المنهج الذى اتبعه علماء الكلام فى مباحثتهم يختلف عن المنهج الذى يعتمد عليه الفلاسفه فى معالجة القضايا التى يعرضون لها . إذ من المعلوم (والشائع) أن المتكلمين يعتمدون دائما على النقل (السمع) بينما يعتمد الفلاسفة فى المقام الأول على العقل .... على أن ذلك لا يعنى البتة الفصل ما بين المنهجين ..... فكثيرا ما يلجأ المتكلمون إلى العقل (المنهج العقلى) لتأكيد وجهة نظرهم ، اذ لا غنى للسمع عن العقل ، وعلى الجانب الآخر كثيرا ما يتجلى ، ويوضح ، ايمانُ الفيلسوف من خلال آرائه الفلسفيه المعروضة عرضاً عقلياً . الصلة بين المنهجين النقلى والعقلى ، ليست صلة مقطوعة ، رغم أن ثمة فوارق أساسية بين منهج كل من الفيلسوف والمتكلم .

وقد نال المتكلمون من ابن رشد قدراً كبيراً من اهتماماته ومن مطاعنه التى وجهها اليهم وتَوَّجها فى نهاية المطاف بكتابه الهام "تهافت التهافت" .

ورغم أن البحث عن فلسفة ابن رشد الحقيقية يقابل باشكالات كثيرة أهمها فى هذا الصدد هو كيفية التمييز بين آراء ابن رشد وبين آراء أرسطو .. ذلكم أن أهم أعمال ابن رشد كلها كانت منصبة على شرح وتفسير وتلخيص الفلسفه اليونانيه عامه وأعمال أرسطو بوجه خاص ، ومن هنا صعب كثيرا الفصل بين أقوال ابن رشد (بين ما لإبن رشد) وبين أقوال أرسطو المشروحه أو الملخصه أو المفسرة من قبل ابن رشد أقول : رغم ذلك كله ، فانه ليس من العسير أن يكتشف المرء أثر المتكلمين على ابن رشد رغم أنه هاجمهم هجوما عنيفاً . فثمة فلاسفة كثيرون أفادوا ممن

سبقهم ، ومع هذا لم ينل هؤلاء السلف من الخلف الا الجحود والنكران .. انها الطبيعه الانسانيه ... تلك التى تسعى إلى أن تقطع يد العون بعد أن تأخذ منها ما تريده.

وفى هذا الصدد سوف نحاول أن نكشف أوجه الشبه والخلاف بين أقول ابن رشد وبين المتكلمين على ضوء كتاب هام لابن رشد هو "الكشف عن مناهج الأدله فى عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل ، من الشُبه المزيفه والعقائد المضلة" إذ أن القارىء لهذا الكتاب سوف يدرك ، بغير صعوبة ، أن نقوذ المتكلمين على ابن رشد كان قويا ، وأنه رغم هجومه العنيف عليهم ، الا أن ذلك لا ينفى البتة الصلة الفكرية بينه وبينهم . فخصومة الفكر لا تعنى القطيعة الفكرية ، بل انها تتضمن ، من جملة ما تتضمن تأثر المفكر بمن سبقه سواء كان هذا التأثر سلبيا أم ايجابيا ، وسواء كان سلبيا فى جهة وايجابيا فى جهة أخرى . انه يصعب علينا تصور أن يحيا ابن رشد بين المتكلمين وأن يقرأهم وأن يعانى منهم (ومن الفقهاء) أحيانا ، ثم لا يتأثر لهم .

إننا من خلال القراءة المتأنية لكتاب الكشف عن مناهج الأدلة ، أدركنا أن ثمة صلة قوية بين المتكلمين وبين ابن رشد ، لم يستطع من خلالها أن يفلت من نفوذهم أحيانا ومن ثم تأثره بهم ... رغم أنه قد فند أقوالهم فى غير موضع . ولعل عرضنا لمشكلة الالوهية بين ابن رشد وبين المتكلمين ، بشىء من الإيجاز ، يؤكد ما نزعمه فى هذا الصدد .

١ – أدلة وجود الله :

ثمة أدلة كثيرة طرحها المتكلمون والفلاسفة لتأكيد الوجود الالهى والاستدلال عليه . ولعل أهم هذه الأدله : الدليل الكونى ، الدليل الخلقى ، الدليل الغائى ، الدليل الأنطولوچى ، دليل الحركة والمحرك ... الخ كل هذه الأدلة وقف عليها ابن رشد ، لكنه فى نهاية المطاف إنتهى إلى أن ثمة دليلين قاطعين على وجود الله ،

أحدهما هو دليل العنايه ، والآخر دليل التمانع .

أ – دليل العنايه :

يرى ابن رشد ان دليل العنايه يعد من أهم الأدلة التى يمكن الاطمئنان اليها كشاهد يقينى وحق لاثبات أن الله موجود . وهو فى هذا الدليل يرى أن الانسان سيد الكون وانه اكمل المخلوقات واشرفها وافضلها ، وانه وحده قادر على تحمل المسئوليه والامانه وهو هنا ينظر إلى الكون نظرة غائيه ، بمعنى ما . فكل موجود يسعى نحو هدف معين . وكل ما على الأرض مسخر لخدمة الانسان . ليس هذا فقط بل أن وجود الانسان نفسه بصورة معينه وباعضاء كل منها له دوره الخاص . كل ذلك فى رأى ابن رشد يمكن أن يؤدى إلى وجود الله . وابن رشد يذكر أن دليل العنايه هذا ينبنى على أصلين رئيسيين :

١ – ان جميع الموجودات التى فى عالمنا هذا موافقة لوجود الانسان .

٢ – ان هذه الموافقة لم تأت بالصدفة . أقصد بطريقة عشوائيه ، بل انها مدبرة من قبل كائن قادر عليم حكيم .

فقيما يتعلق بالاصل الأول يرى ابن رشد ان وجود الليل والنهار وتعاقبهما ووجود الفصول الأربعه بترتيب معين لا يحيد عنه وبزوغ الشمس والقمر فى أوقات محدده ، ووجود البحار والانهار وعدم اختلاط هذه بالأرض ، أو عدم تغطيه الأرض لها .. كل ذلك لا يمكن أن يكون حاصلا عن الصدفه ، لأن الصدفه إنْ أنتجت مرة أو مرتين أو ثلاث فانها لا يمكن أن تكون قاعدة عامه أو نظاما كونيا صارما لا يتغير ولا يتبدل . وهذا النظام الكونى لابد ان يكون له مُنظّم اوجده على صورته هذه ، وعلم دقائقه وادرك الغاية منه . وهذا المنظم الحكيم لابد أن تكون له صفات تليق به (سوف نعرض لها حالا) .

ب – دليل الاختراع :

وفى هذا الدليل اعتمد ابن رشد على طريقة المتكلمين رغم انه هاجمهم ورفض اتجاههم لكن ذلك الرفض من جانبه (وهو رفض مفهوم) لا ينفى الحقيقة القائمه القائله بانه قد افاد منهم . ذلك أن خصومة الآراء والأفكار تختلف عن خصومه الأشخاص . فقد استطيع ان اتبرأ وان اقطع صلتى الشخصية بزيد او عمر من الناس ، لكن من المستحيل ان اقطع صلتى الفكريه به . ومن هنا فأن هذا الدليل دليل الاختراع يستند إلى رأى المتكلمين فى أن العالم مكون من جواهر واعراض والاعراض الحادثه . ومن المعلوم ان الجواهر لا تخلو من الاعراض أى لا تخلو من الحوادث ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . أى أن العالم محدث ، والمحدث المخترع لابد له من مُخترِع مُبدِع هو فى النهايه الله . كما أن هذا الدليل يستند إلى ما ذهب اليه الاشاعرة من ان الانسان أو الموجود أيا كان لا يستطيع ان يُوجِد لنفسه أو ينقل شيئا من العدم إلى الوجود أو العكس . ويقول الاشعرى : "ان الانسان يولد طفلا ثم يصير شابا فكهلا ثم شيخا" وقد علمنا انه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم . لان الانسان لَوْجَهَدَ أن يُزيل عن نفسه الكِبَر والهرَم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك . فدل ما وصفنا على انه ليس هو الذى ينقل نفسه فى هذه الاحوال وان له ناقلا نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه .. ومما يبين ذلك ان القطن لا يجوز ان يتحول غزلا مفتولا ثم ثوبا منسوجا بغير ناسج ولا صانع ومن اتخذ قطنا ثم انتظر ان يصير غزلا مفتولا ثم ثوبا منسوجا بغير صانع ولا ناسج كان عن المعقول خارجا وفى الجهل والجا" (١) .

نعود فنقول ان ابن رشد أفاد من ذلك كله ونسج منه خيوط دليل الاختراع لديه مبينا أن دليله يعتمد على أصلين :

(١) أبو الحسن الأشعرى : كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص١٧ وما بعدها – نشرة حموده غرابه – مكتبة الخانجى – القاهرة ١٩٥٥م وراجع كتاب الانصاف للباقلانى ص٣٢

١ – ان هذه الموجودات مخترعه .

٢ – ان كل مخترع فله مخترع . ويضيف : فيصح من هذين الاصلين ان للموجود فاعلاً مخترعا له . وفى هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات [١] . فهو يرى أن ثمة موجودات فى عالمنا هذا تخرج كل يوم إلى الوجود . ومن المستحيل أن يُخرِج الموجودُ نَفْسه لان هذا يفترض انه سابق فى الوجود على نفسه . ثم اننا نشاهد أجساما جماديه ، وهذه الاجسام تحدث فيها الحياة ولا يمكن للجسم ، من حيث هو جسم – أن يُحدِث فى نفسه حياةً .. وهذا يتضمن ضرورة وجود موجود حى وهبه الحياه .. الخ – على ضوء هذين الدليلين سعى ابن رشد إلى تفسير جميع الايّات التى توحى بذلك أو التى يمكن ان تسعفه فى تاكيد رأيه . من هذه الايات التى تتضمن دليل العنايه :

"ألم يجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا" [٢] .

"تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا" [٣] .

"فلينظر الأنسان إلى طعامه" [٤] .

أما الآيات التى تتضمن دليل الاختراع فمنها : –

"فلينظر الأنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق" [٥] .

"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" [٦] .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدب ص٦٦ – المكتبة التجارية – القاهرة ط٢ ١٩٣٥م – ١٣٥٣هـ .

(٢) النبأ : ٦ .

(٣) الفرقان : ٦١ .

(٤) عَبَسَ : ٢٤ .

(٥) الطارق : ٦ .

(٦) الغاشية : ١٧ .

"يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له" (١) .

وهناك آيات رأى ابن رشد انها تجمع الدليلين : دليل الاختراع ودليل العنايه منها :

"يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ... فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون" (٢) . فان قوله : الذى خلقكم والذين من قبلكم تنبيه على دلالة العنايه . ومثل هذا قوله تعالى "وآيةٌ لهم الأرض الميته احييناها واخرجنا منها حبا فمنه ياكلون" (٣) . وقوله تعالى : "الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" (٤) .

٢ – ابن رشد والوحدانيه :

من خلال ما سبق يعتقد ابن رشد انه اثبت اثباتا قاطعا ان الموجودات ، أو بتعبير اشمل العالم ، مخلوق محدث وانه كان بعد ان لم يكن . وهو بذلك انما يريد ان يثبت ان هناك قوة اخرى هى التى اوجدت العالم بما فيه وبمن فيه .

لقد كان على ابن رشد ان يحدد أيضا بالأدلة القاطعة هل هذه القوة التى اوجدت العالم واحدة أم متكثره . فنحن نعلم أن الفلسفة اليونانية اثبتت أن هناك مبدأ للوجود : بعضهم ذهب إلى القول باته الهواء بينما ذهب الآخر إلى القول بالماء وثالث قرر ان النار هى الاصل ... بينما ذهب احدهم (أنباد قليس) إلى القول بان العناصر الاربعة هى اصل الوجود . اما أفلاطون الالهى فقد كان رأيه أن ثمة ثلاثة مبادىء قديمة لا يمكن أن يرد الواحد منها الى الآخرين وهى : الاله ، المادة ثم عالم المثل ، ويحلو لأفلاطون ان يسمى إلهه بـ "الصانع" ، لان فكرة الخلق ، كما نعلم فكرة دينيه

(١) الحج : ٧٣ .
(٢) البقرة : ٢١ .
(٣) يس : ٣٣
(٤) آل عمران : ١٩١ .

لم تعرفها الفلسفه اليونانيه . اما المعلم الاول فان العالم عنده (شأنه شأن الفلاسفة اليونانيين) – قديم لا أول له ولا آخر .

نعود اذن لنقول كان على ابن رشد بعد أن اثبت حدوث العالم وانه حادث من قبل قوة اخرى ان يثبت وحدانية هذه القوة . أى عليه أن يثبت ان الاله واحد لا شريك له فى خلق هذا العالم بموجوداته وهنا يلجأ ابن رشد إلى ثلاث آيات غاية فى الأهميه ، حيث يستنبط منها ادلته العقليه على وحدانية الله (ويلاحظ هنا انه لا تعارض بين العقل والنقل عند ابن رشد) ، وهذه الآيات هى : –

١ – "لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا" (١) .

٢ – "ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذالذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون" (٢) .

٣ – "قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذ الابتغوا إلى ذى العرش سبيلا" (٣) .

فالآية الاولى تثبت انه من المستحيل ان يكون العالم حادثا عن اكثر من اله ، لانه فعلٌ والفعل لابد له من فاعل فاذاً فعل العالم احدهما كان الآخر معطلا . والتعطيل صفة لا يمكن ان يتصف بها الاله . ولا يمكن ان يقال ان العالم مصنوع لاكثر من اله لان من صفة الاله انه كائن مريد والارادة من صفات الكمال كما هو معروف وكل كائن لابد ان يتميز بارادته . اريد أن اقول ان الاختلاف بين الآلهة ممكن ، والممكن لابد ان يتحقق والا ما أستحق صفة الامكان . أى اذا سلمنا بوجود اكثر من اله لأدى ذلك إلى صراع بين الآلهة لابد ان يؤدى فى النهاية إلى انتصار احدهم وهزيمة الاخرين ، فضلا عن ان هذا الصراع يمكن أن يؤدى إلى فساد العالم . ويشير ابن رشد إلى انه لا يصح أن يكون فى المملكة أكثر من ملك واحد

(١) الأنبياء : ٢٢ .

(٢) المؤمنون : ٩١ .

(٣) الاسراء : ٢٢ .

حيث يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر معطلاً وذلك منتف فى صفة الالوهية . فانه متى اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد فسد المحل ضرورة . ان العالم واحد ولا يجب ان يكون حادثا الا عن اله واحد اتقن صنعه .

ومن رأى ابن رشد انه من غير الممكن أن يكون هناك اكثر من اله بحيث يصنع كل واحد عالما خاصا به . لان ما يترتب على ذلك هو سعى كل اله إلى ان تتميز مصنوعاته عن المصنوعات الاخرى . وفى النهاية سوف يبقى الاله الاقوى والاحكم بعالمه هو . وباختصار فاننا سوف نصل فى النهاية إلى فكرة الوحدانيه .

ونشير هنا إلى أن ابن رشد قد افاد مرة اخرى من المتكلمين فى صياغته هذا الدليل . فهو بلا شك يعتمد هنا على دليل المتكلمين المسمى دليل التمانع : أى امتناع وجود خالقين لمخلوق واحد ، والهين لعالم واحد . فقد ذكر الاشعرى على سبيل المثال لا الحصر ، هذا الدليل فى كتابه اللمع على الوجه التالى "فان قال قائل : لم قلتم ان صانع الاشياء واحد ؟ قيل له : لان الاثنين لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على احكام . ولابد أن يلحقهما العجز أو واحدا منهما . لان احدهما اذا أراد ان يحى انسانا واراد الاخر ان يميته لم يَخْلُ أن يتم مرادهما جميعا او لا يتم مرادهما ، جميعا لانه يستحيل ان يكون الجسم حيا ميتا فى حال واحده . وان لم يتم مرادهما جميعا ، وجب عجزهما ، والعاجز لا يكون الها ولا قديما . وان تم مراد احدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما والعاجز لا يكون الها ولا قديما . فدل على أن صانع الاشياء واحد) [1] .

٣ – ابن رشد والصفات الالهيه :

كانت مشكلة الصفات الالهيه من المشكلات الخطيرة والهامة التى اثيرت فى البيئة الاسلامية على ايدى المتكلمين . ولقد كان الدافع إلى ذلك فى أول الامر العناصر الاجنبية التي ما لبثت أنْ وجدت صدرا رحبا فى الآيات المتشابهات ، وهى

(١) اللمع ص ٢٠ – ٢١ .

الآيات التى يمكن ان توحى بوجود شبه بين العبد والرب .

ونحن نعلم ان المسيحية ذهبت إلى القول بوجود ثلاثة اقانيم متحده مع ان كل اقنوم منها قائم بذاته . فالوجود هو الاب والعلم هو الابن والحياة هى روح القدس . اراد المتكلمون ان ينزهوا الله عن كل ما عداه لدرجة ادت ببعضهم إلى التعطيل فنجد ان المعتزلة قد نفت قدم الصفات – الالهية ، وكان قولها فى هذا ان الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حى بحياه ، وحياته ذاته ... أى انها قالت ان الصفات عين الذات ، مع أن هذه الصفات متميزه فيما بينها بلا شك .

أما الاشاعره فقد قررت اثبات الصفات الالهيه واثبات أن هذه الصفات قديمه . أما علاقة الصفة بالذات فذكرت ان الصفات ليست هى الذات وليست غير الذات فالصفه امر زائد على الذات ليس هى وليست الذات هو . كذلك أوضحت الاشاعرة ان مدلول العلم غير مدلول القدره ، غير مدلول الحياه .

ذهب ابن رشد فى هذه المسأله إلى موافقة المتكلمين احيانا ومخالفته لهم احيانا . فابن رشد لا يختلف معهم من حيث المبدأ أقصد من حيث ان الله موجود وهو متصف بصفاته . من علم وسمع وبصر وحياة وكلام .. لان هذه الصفات تدل على الكمال وبما ان الله كامل فلابد ان يكون متصفا بها . لكن ابن رشد يختلف مع المتكلمين تماما فى فهمهم للعلاقة التى بين هذه الصفات وبين الذات . فهو يرفض رأى المعتزلة الذى ذهبوا فيه الى ان الصفات عين الذات الالهيه ، وان هذه الصفات حادثة وليست قديمه لانه يرى انه اذا كانت الصفة عين الذات ، والصفه حادثه فينبغى أن تكون الذات حادثه . اضف الى ذلك ان الذات واحده والصفات متعدده ومتباينه ، فكيف تكون كل صفة بمفردها عين الذات . كذلك فان ابن رشد ينكر على الاشعريه رايها فى هذا الصدد ، لانه يرى اننا اذا قلنا ان الصفة امر زائد على الذات قائم بها ، وهى فى نفس الوقت (الصفه) ليست عين الذات كما انها ليست مخالفة للذات ، لوقعنا هنا فى تناقض شنيع . لان الشىء اما ان يكون هو أو لا هو . اما القول

بأمر وسط فغير مفهوم . ومن هنا فان ابن رشد يرى ان المتكلمين جاءوا بامر منكر فى هذا الصدد ادى الى حدوث فتنة بين المسلمين لم يكن ثمة داع لها . ولا نريد هنا ان نتوسع فى الحديث عن كل صفة من الصفات وكيف ان ابن رشد يكشف عن الآراء المتناقضه داخل كل اتجاه من اتجاهات المتكلمين ويكفى هنا ان نذكر موقفه من مشكلة العلم الالهى مثلا فهى تعكس لنا فهمه للصفات كلها .

يرى ابن رشد ان العلم صفة من الصفات القديمة التى ينبغى ان يتصف الله بها من الازل ولا يجوز ان يتصف بها وقتا . ويرى ابن رشد اننا لا ينبغى أن نتوسع فى فهم العلم الالهى كصفة اكثر من هذا ، كما فعل المتكلمون . فليس ثمة داع للقول انه سبحانه يعلم الحوادث بعلم قديم ، لان ذلك يترتب عليه أن يعلم الحوادث قبل وقوعها وبعد وقوعها بعلم واحد وهذا أمر غير مقبول . لاننا نعلم أن العلم ينبغى أن يكون تابعا للموجود فعلمى ان زيدا حى غيرُ علمى انه ميت أو اصيب فى حادث . والعلم بالفعل غير العلم بالقوة . فكيف يكون علم الله بأن زيدا فى الدار هو عين علمه ان زيدا قد خرج من الدار أو انه مات . لهذا يرى ابن رشد انه اذا كان لابد لنا من أن نتوسع فى فهم العلم الالهى ، فينبغى أن يوضع كما فى الشرع أنه سبحانه عالم بالشىء قبل أن يكون على انه سيكون وعالم بالشىء اذا كان على انه قد كان ، وعالم بما قد تلف انه تلف فى وقت تلفه . وهذا هو – فى رأى ابن رشد – الذى يقتضيه اصول الشرع [1] . وينتهى ابن رشد الى القول انه سبحانه يعلم المحدثات وفساد الفاسدات لا بعلم محدث ولا بعلم قديم .

ومن الواضح أن رأى ابن رشد هنا غامض ومتناقض ومشوش وانه وأن كانت له مبررات وجيهة وطريفه فى رفض رأى المتكلمين وتقدمهم الا انه فى النهايه كان أسوأ منهم ان لم يزد عنهم سوءا . فهو عاد فى ناهية المطاف قائلا لا ينبغى لنا أن نسعى لفهم هذه المشكله ولا نقول أن علمه قديم ام حادث ؟ .

(١) راجع الكشف عن مناهج الأدلة ص ٨٧

على أن الأمر يختلف عن ذلك فى فهمه لصفة اخرى من الصفات الالهيه واقصد بها صفة الاراده . فقد قال ابن رشد : ان الاراده صفة من الصفات التى يتصف الله بها ، لان من شروط حدوث الشيء عن الفاعل القادر العالم أن يكون مريداً له . لكن ان يقال انه مريد للامور المحدثة – كما يقول ابن رشد – بارادة قديمة فبدعة وشيء لا يعقله العلماء ولا يقنع الجمهور . بل ينبغى ان يقال انه مريد لكون الشيء فى وقت كونه وغير مريد لكونه من غير وقت كونه ، كما قال تعالى : "انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون" (١) . لقد اراد ابن رشد أن يقول – وهو الفيلسوف العقلى جدا – ان مشكلة الصفات الالهيه من المشاكل التى لا يَسَعُ العقل أن يدلى فيها برأى قاطع . ومعنى هذا انه يرى انها حسبما ايمانيه بحته : أؤمن بها أو لا أؤمن . لكن السؤال الآن : هل للعقل دخل فى الايمان ام لا يصح لى ان اعقل لكى أؤمن ؟ .

على كل حال فان ابن رشد ختم رأيه فى هذا بقوله "أى الذى ينبغى ان يعلمه الجمهور من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الامر فيها هذا التفصيل . فانه ليس يمكن ان يحصل عند الجمهور فى هذا يقين أصلا" (٢) .

٤ – ابن رشد والتنزيه الالهى :

انتهينا الى ان ابن رشد يرى ان الله واحد لا شريك له فى ايجاد هذا العالم ، وان هذا الاله متصف بصفات الكمال ، وان هذه الصفات ثابته له سبحانه من الازل . ولقد كان على فيلسوفنا بعد هذا أن يبين أن الله ليس كمثله شيء وان كل ما خطر ببالنا فان الله بخلاف ذلك . أى كان على ابن رشد ان ينزه الله عن كل ما عداه وأن يظهر موقفه من مسألة الجسم الالهى ومن فكرة رؤية الله .

(١) النحل : ٤٠ .

(٢) الكشف عن مناهج الأول : ص ٨٥ .

يبدأ ابن رشد فى هذا الصدد بذكر الآيات التى تمثل الدليل النقلى على تنزيه الله . فيذكر هنا قوله تعالى "ليس كمثله شىء وهو السميع البصير" وقوله سبحانه "أفمن يخلق كمن لا يخلق " وقوله سبحانه "قل هو الله أحد الله الصمد ....." ولما كان الله خالق هذا العالم فينبغى أن نسلم بان الخالق مختلف عن مخلوقاته بلا شك . لكن هذا الاختلاف لا ينبغى ان يكون اختلافامطلقا لانه لوكان اختلافا مطلقا لتعذر علينا الاستدلال عليه من مصنوعاته . كما انه لا ينبغى فى نفس الوقت ان نسوى بين الخالق والمخلوقات من كل وجه والا وقعنا فى تناقض شنيع . هناك اذا اوجه شبه بين الله وبين الموجودات . لكن هناك ايضا اختلافات جوهرية بينهما . فنحن موجودون والله موجود هو سميع بصير ونحن نسمع ونبصر ... أى اننا نتصف ببعض الصفات التى يتصف بها الله .. لكن ينبغى ان ننبه الى ان صفاتنا توجد لنا على جهة غير الجهة التى هى عليها فى الله . فاذا كان الرسول قد قال "ان الله خلق آدم على صورته .." فينبغى لنا ان لا نبادر فنسوى بيننا وبينه سبحانه فوجودنا غير وجوده تعالى وكذلك الأمر فى السمع والبصر والحياه .. الخ وعند فيلسوفنا ان نفى المماثلة بيننا وبينه سبحانه يعنى أمرين :

الاول : ان يعدم الخالق كثيرا من صفات المخلوق .

الثانى : ان توجد فيه صفات للمخلوق على اتم وافضل بما لا يتناهى فى العقل[1] .

فالكائنات لها بدايه ومن ثم فلابد ان تكون لها نهاية وهى فى هذا تختلف كلية عن الله الذى لا يموت وما يترتب على ذلك من عدم غفله أو سهو لانه سبحانه يمسك دائما السموات والأرض وينظم الدورات كلها .. الى آخر هذه الامور التى أشرنا اليها فى دليل العنايه .. اذا اول اختلاف بين الموجودات وبين الله هو انها كائنات مائته اما هو فليس كذلك . أى انه سبحانه منزه عنها من هذه الناحيه .

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة ص ٨٧ .

على ان الله لما كان متصفا ببعض الصفات المحسوسه ، فهل يعنى ذلك ان له جسما ؟ أم انه لا جسم له ؟ .

نحن نعلم ان هذه المشكلة ليست هينه فى تاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى ، ولقد أدلت كل فرقة فيها بدلوها .

فهناك الكراميه التى ذهبت الى ان الله جسم كبير . وقسمت هذا العالم كله إلى جوهر ومجموعة اعراض وجعلت الله جوهر العالم وذهبت الى ان الحوادث إنّ هى الا الاعراض التى تلحق الجسم الكبير . هذا الجسم لا يخرج عنه شىء : فيه خير وشر ، فيه حياة وموت .. الخ لكن الجسم نفسه لا يطرأ عليه ما يطرأ على اعراضه من تغير وتبدل وفساد ، لان الحدوث يقتضى موضوعا ثابتا يجرى عليه ، وهذا الموضوع هو الجوهر الازلى الخالد .

ولقد سعت الكراميه ، كما هو معروف ، الى الاستدلال على رأيها بآيات القرآن الكريم فذكرت قوله سبحانه "خلقت بيدى" و "السموات مطويات بيمينه" و "بل يداه مبسوطتان" وقوله "تجرى باعيننا" و " ويبقى وجه ربك" وقوله "فى جنب الله" و "استوى على العرش " و "جاء ربك " .. و "وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" .

أما استدلالهم العقلى فخلاصته : ان الله فاعل ، وكل فاعل لابد ان يكون جسما ، لان ما ليس بجسم لا يصح منه الفعل . وبما ان صحة فعل الله واقعه ، وجب أن يكون الله جسما . ثم انهم اضافوا : اننا لا نستطيع ان نستدل على وجود الله الا من خلال هذا العالم الذى ينقسم الى جوهر وعرض ، وبما ان الله ليس عرضا فينبغى ان يكون جوهرا ماديا . اضف الى ذلك ان احد طرق معرفتنا لله سبحانه هو هذه الاجسام ذاتها ، فلو لم تشبهه من وجه لما دلت عليه ، لان الشىء انما يدل على شبيهه . .اخيرا فقد قرروا ان الموجودات على ضربين : قائم بنفسه ومحتاج الى محل ، والاول هو الجسم وهو سبحانه قائم بنفسه ، ولذلك

فهو جسم (١) .

أما المعتزلة فقد نفت ما ذهبت اليه الكراميه واستشهدت بآيات عديده تنفى ان يكون الله جسما ، ذاهبة الى اننا لا يجب ان نتخذ من الشاهد دليلا على الغائب وان نسوى بين هذا وذاك تسوية كامله. وترتب على نفيها الجسمية لله ان نفت الجهة ، لان ما ليس جسما فلا يوجد فى جهة معينه . وعند المعتزله ان رؤية الله غير جائزة لا فى حياتنا هذه ولا فى الحياه الاخرى (٢) .

ولقد وافقت الاشعرية المعتزلة الرأى فيما يتعلق بأن الله ليس جسما ، لان كل جسم له ابعاد ثلاثه : طول وعرض وعمق . أى ان كل جسم لابد ان يكون محدودا متناهيا ، وكل متناه حادث فى حاجة الى من يحدثه . ثم ان الجسم لا يخلو من الاعراض التى هى حوادث وما لا يخلو من الحوادث حادث .... الخ لهذا انكرت الاشاعرة بشدة ان يكون الله جسما . ولكن على الرغم من انها نفت جسمية الله الا انها قررت الجهة متناسية او جاهلة إن القول بالجسيمه معناه القول بالجهة وان القول بهذه يتضمن الجسمية وان نفى الجسمية يتضمن نفى الجهة . ذلك ان الجهة فى النهاية هى المكان والمكان لابد ان يكون فيه "متمكن" . لهذا فان الاقرار بالجهة اقرار بالجسمية ... ومهماسعت كل من الاشاعرة والمعتزله الى تفسير وتأويل الآيات كل على حسب اتجاهه ، فقد بان لابن رشد تهافت كلا الرأيين . والسؤال الآن ما هو رأى ابن رشد ؟

الواقع ان ابن رشد فيلسوف سعى الى الجمع بين العقل والنقل فى هذه الناحية سعى الى ذلك مهما كلفه من جهد وعناء وخروج على روح النص حينا ومجانبة

(١) ابن كرامة الجشمى : شرح العيون حـ١ ص٥٣١٧ (مخطوط بدار الكتب المصرية) وراجع كذلك ابن حزم الاندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ٢ ص١١٧ المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧هـ .

(٢) راجع على سبيل المثال : شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص٤٤ ، ٤٥ وكذلك ديوان الأصول للنيسابورى ص ٦٠٠ وما بعدها .

العقل حينا آخر . ذلك ان عملية التوفيق لابد ان يكون لها ضحايا ، ولابد ان يضحى بطرف لصالح الطرف الآخر .

ولقد اتخذ فيلسوفنا هنا موقفا اقل ما يقال فيه انه موقف العامى لا موقف الرجل المتفلسف . فهو يذهب الى ان هذه الفكرة لا ينبغى للمرء ان يبت فيها برأى ، بل عليه أن يؤمن فيها بما جاء به الشرع . فاذا سألنا ابن رشد : هل الشرع يقول بجسمية الله أم لا ؟ أجاب "ان الشرع قد صرح بالوجه واليدين فى غير ما آية من الكتاب العزيز . وهذه الآيات قد توهم ان الجسمية هى له من الصفات التى فَضَلَ فيها الخالق المخلوق ، كما فضله فى صفة القدرة والارادة وغير ذلك من الصفات التى هى مشتركه بين الخالق والمخلوق الا انها فى الخالق اتم وجودا . ولهذا صار كثير من اهل الاسلام الى أن يعتقدوا فى الخالق أنه جسم لا يشبه سائر الاجسام . وعلى هذا الحنابلة وكثير من تبعهم . ويضيف ابن رشد . والواجب عندى فى هذه الصفة ان يجرى فيها على منهاج الشرع فلا يصرح فيها بنفى ولا اثبات . ويُجَابُ من سأل فى ذلك من الجمهور بقوله تعالى . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (١) .

وينبغى للانصاف ان نقول : لقد كانت هناك عوامل رئيسيه دفعت ابن رشد الى اتخاذ هذا الموقف منها :

١ – ان اثبات الجسميه أو نفيها عنه سبحانه يحتاج الى مقدمات طويله وبراهين عديدة لا يستطيع ان يهتدى اليها عامة الناس .

٢ – ان الغالبية الكبرى من الناس لا تعرف الا الوجود والعدم الجسم ولا شيء ، فما ليس بمادى أو محسوس عندهم فلا وجود له خاصة وان المتكلمين ذهبوا الى انه لا خارج العالم ولا داخله ، لا فوق ولا تحت .. الخ .

---

(١) الشورى : ١١ . وراجع الكشف ص ٨٨ – ٨٩ .

٣ – ان عدم اثبات الجسمية لله يؤدى الى شكوك كثيرة تتعلق ببعض الآيات التى ورد فيها رؤية المقربين له فى الآخره . ووصفه سبحانه نفسه بوجود وجه ويدين وعينين وما الى ذلك . هذا الى جانب ان نفى الجسميه ينفى حركة الله فى الآخرة . وهى التى اشير اليها بقوله : وجاء ربك والملك صفا صفا .. (١) .

٤ – انه مع ان الشرع لم يؤكد الجسمية او ينفيها ، فان حديثه عن الروح ايضا لم يكن جازماً فالشريعه لم تجزم . بحقيقة الروح حيث اوضحت العجز البشرى عن ادراك كل شىء "فالروح من أمر الله وما أوتى الناس من العلم الا القليل .

ابن رشد انن كعادته متردد بين النفى والاثبات لكنه عاد فى النهايه فمال الى القول بان الله نور على نور وأنه نور السموات والارض . وهذا ما أكدته النصوص الدينية والاحاديث النبوية فقد سُئل الرسول عن ما اذا كان قد رأى الله فأجاب بقوله "نور أنى أراه" لكن نسى ابن رشد ان حديثه عن الله بحسبانه نوراً يؤدى به الى القول بأنه جسم .

على أنه بعد أن ترك ابن رشد مسألة الجسم معلقه كان من الواجب عليه ايضا ان يترك مسألة الجهة كذلك دون أن يقطع فيها برأى ، أو على الاقل كان من الواجب عليه وقد نفى الجسمية ان يقول بعدم وجود الله فى جهة ما "لكن ابن رشد تابع هنا فى مسالة الجهة الاشاعرة . ولقد أخطا . صحيح ان الجهة متميزة عن المكان لكن هذا التميز لا ينفى البته انها ملازمة له . فكل موجود فى جهة انما هو فى الحقيقة متمكن فيها . المهم هو ان ابن رشد قد آمن بالجهة وقد استند الى نصوص قرآنية منها .

– ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيه . (٢)

– يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فـى يوم كان مقداره الف

(١) الفجر : ٢٢ .

(٢) الحاقة : ١٧ .

سنه مما تعدون . (١)

- تعرج الملائكة والروح اليه . (٢)

- أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور . (٣)

ويبين ابن رشد ان الأديان السماوية كلها تذهب إلى ان الله موجود فى السماء وانه يوحى من هناك إلى عباده ورسله عن طريق ملائكه مكلفين . ثم ان قصة الاسراء والمعراج لدليل قاطع على وجود الجهة والفوقيه . قال ابن رشد "فقد ظهر لك من هذا أن اثبات الجهة واجب بالشرع والعقل ، وانه الذى جاء به الشرع وانبنى عليه . وان إبطال هذه القاعده ابطال للشرائع ، وان وجه العسر فى تفهيم هذا المعنى مع نفى الجسمية هو انه ليس فى الشاهد مثال لهم ، فهو بعينه السبب فى ان لم يصرح المشرع بنفى الجسم عن الخالق سبحانه ، لأن الجمهور انما يقع لهم التصديق بحكم الغائب متى كان ذلك معلوم فى الوجود فى الشاهد" (٤)

أما فيما يتعلق بمسألة الرؤيه وهى التى ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألتى الجسمية والجهة ، فان ابن رشد يرى القول برؤية الله فى الآخره . وانه ينبغى أن يبلغ الجمهور بهذا . فيما ان الله نور وان له حجابا من نور ، كما جاء فى القرآن والسنن الثابته فان المؤمنين سيرونه فى الآخرة كما نرى الشمس .

---

(١) السجدة : ٥ .

(٢) المعارج : ٤ .

(٣) الملك : ١٦ .

(٤) الكشف ٩٦ .